

مداخلة حول : تجربة الأمير عبد القادر في التفاوض مع الفرنسيين ،

معاهدة التافنة لسنة 1837 نموذجاً

بليل محمد، أستاذ بقسم العلوم الإنسانية بجامعة ابن خلدون تيارت

تمهيد

لقد حفل القرن 19م، بتطورات و أحداث بارزة على الساحة الدولية، بتنامي النزعة الاستعمارية الأوروبية الجدّ متطورة؛ تجاوزت الحدود الإقليمية لأوروبا نحو إفريقيا و أوروبا و آسيا ، و كانت فرنسا من بين الدول المهتمة بالجزائر، فحاولت بمختلف الطرق التجسس على الجزائر و ضرب أسطولها، و استمالة الدول الكبرى لصالح مشروعها الاستعماري خاصة بريطانيا (1) .

لذلك حاصر الفرنسيون مدينة الجزائر بحجة تأديب الداي و إلغاء نظام القرصنة لكن الهدف الحقيقي تمثل في تحطيم الأسطول الجزائري و ساعدهم على ذلك جملة من العوامل منها:

- انعدام الانسجام بين حكام إيالة الجزائر و الشعب الجزائري.
- ضعف قوّة الجيش الانكشاري .
- سوء التخطيط و التنظيم في مواجهة القوات الغازية.
- عدم إشراك المتطوعين الجزائريين .
- فساد الخطط الحربية .
- الاعتناء بالقضايا الشخصية.

و لهذه الغاية تمكّنت القوات الغازية في شهر جوان 1830م من تخطي مراكز الدفاع الأمامية للجيش التركي والنزول في سهل أسطولي بعد رسو أساطيلهم بشبه جزيرة سيدي فرج ، و بعد تقهقر القوات المدافعة تمكّن الجيش الفرنسي من الوصول إلى حصن الإمبراطور و بعد وساطة القنصل الانجليزي وافق داي الجزائر على الاستسلام و تسليم العاصمة لقائد الحملة الفرنسية "دي بورمون" (2).

و بعد ذلك سعت فرنسا إلى التوغل شرقا و غربا، فاحتلّت المدن الساحلية الرئيسية كعنابة و وهران و مستغانم و كانت تعتقد فرنسا أنّ العرب الناقمين على الأتراك سيستقبلون الفرنسيين بكلّ سرور.

لكن الجزائريين قاوموا الفرنسيين في كلّ مكان، و أهمّ مقاومة عرفتّها الجزائر في بداية الاحتلال، كان زعيمها البطل القائد الأمير عبد القادر، الذي خاض نضالا مريرا و بطوليا، و هو "موضوع مداخلتنا، التي سنحاول فيها إبراز الجوانب البطولية لشخصية الأمير العسكرية والسياسية والتفاوضية في مواجهته السياسة الاستعمار الفرنسي و أساليبه الوحشية و جرائمه الكبرى التي شهدتها منطقة الغرب الجزائر .

فأما الأمير عبد القادر، فكان بحق و باعتراف جميع الدراسات المعاصرة له أو التي كتبت عنه فيما بعد أنّه مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، بما مثّله من روح سامية و نضال بطولي في مواجهة لأقوى القادة الفرنسيين المتمثل في الماريشال "بيجو"، الذي تبنى سياسة الأرض المحروقة .

و لهذه الغاية تطرح أمامنا إشكالية عامة ، حول خصوصيات و طبيعة التفاوض الذي فرض على الأمير ، و ما هي إيجابياته و سلبياته و خلفياته ؟

و ها هي نوعية التجربة الدبلوماسية التي تركها الأمير للأجيال اللاحقة التي استمرت في مقاومة الاستعمال الفرنسي بمختلف الوسائل ؟

و هل تندرج هذه التجربة في إطار الفكر التحرري الاستقلالي أم أنها فشلت في تحقيق المبتغى؟
و ما هي النتائج التي يمكننا أن نستخلصها من هذه التجربة ، التي مارسها الأمير مع أشرس قادة الاستعمار الحربيين ؟

1- نبذة مختصرة لسيرة الأمير عبد القادر

إنّ الموضوع الذي نتحدّث عنه ،موضوعا هاما كتب عنها الكثير من المؤرخين و العسكريين و دراسات علمية أخرى أكاديمية ،أبرزها، الكتابات المعاصرة للأمير أمثال "بيجو" و بليسيي"والكولونيل "تشرشل هنري" ومحمد ابن الأمير و أخرى لباحثين أمثال الدكتور حرب أديب و بوعزيز يحي و العربي الزبيري و سعد الله أبو القاسم "و قداش و مؤرخين فرنسيين أمثال "أجرون و ستورا ، و غيرهم...

و لذلك وجب علينا التعريف به و لو بشكل موجز، فهو عبد القادر ابن ناصر الدين محي الدين ود في 23 رجب 1222 هـ الموافق 25 ماي 1808م بقرية القيطنة بمعسكر وفي 1821م انتقل إلى وهران مع والده محي الدين حيث وضعته هنالك الحكومة التركية تحت الإقامة الجبرية⁽³⁾ تخوفا من مكانته الشعبية.

و في هذه المرحلة استطاع الأمير الاطلاع على ثقافة علماء المنطقة و معارفهم، وبعد أن أذنت الحكومة لوالده بالذهاب للحج؛أخذه والده معه لمكانته العلمية و شجاعته الكبيرة،حيث زار عبد القادر البلاد المقدسة وديار الشام و في عام 1828م عاد إلى قريته بعد غياب طويل .

و لقد كان الأمير بخصاله مؤهلا ليكون زعيما،و أنه استسلم للفرنسيين بمحض إرادته ليكمل مشوار حياته في المنفى ، حيث استطاع أن يساهم في نهضة الجزائر الأدبية و الفكرية و السياسية⁽⁴⁾ .

و تأكيد عروبة الجزائر رغم الاحتلال الفرنسي لها .

- لقد تمكن الأمير من تحصيل ثقافة واسعة في مختلف العلوم و فروع الآداب نظرا لاطلاعه على مختلف كتب العلم و الفلسفة كرسائل "إخوان الصفا" و "فيتاغورس" و أريسطو ولقد سجل لنا الأستاذ"عشراتي"⁽⁵⁾ مجهود الأمير عبد القادر في هذا المجال في أحد أجزاء كتابه الخاص بقضايا اللغة و المعرفة و فقه الخطاب القرآني :

- تعمقه في الفقه و الحديث و التفسير و العلوم الاجتماعية و كتب العقاقير و فنون اللغة و أصلاتها .

- اهتمامه بتنظيم المكتبة ،فجمع لها الكتب النفيسة و المخطوطات .

- كانت له اتصالات علمية عديدة مع علماء الجزائر و مراکش و الأستانة، و الرد على أسئلة المستشرقين حول الإسلام ، خاصة بعد استقراره بالمنفى، و قد اطلع العديد من المهتمين بتجربة الأمير على ما كتبه من مؤلفات و شروحات عديدة و منها:

*المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل و الإلحاد في رسالة ، و هي مطولة كتبها في سجن "الأمبواز" في فرنسا.

*ذكرى الغافل و تنبيه العاقل ، وهي رسالة مطولة كتبها للأكاديمية الفرنسية عندما انتخبته عضوا فيها .

*المواقف و مؤلف ضخم في التصوف .

*دراسات في علم الكلام .

*رسائل أخرى عبارة عن تساؤلات و الرد عليها .

و كثيرا هي تلك الدراسات التي كتبت عن الأمير أبرزها "الشكيب أرسلان و مؤرخين و مستشرقين و جنرالات فرنسيين كانوا سفراء لديه مثل الجنرال "دوماس" و روش اللذان استفسرا من الأمير كثير من المسائل المشتبه فيها في الإسلام ، فردّ عليهما بأسلوب هادئ و رزانة وإقناع.

و أهم رسالة مثّلت عبقريته و تفكيره العقلي ، هي رسالة ذكرى الغافل و تنبيه العاقل فهي احتوت على أفكار عديدة و مثّلت تجربة صحيحة و بعد نظر و تمحيص، و تجلّت على وجه الخصوص براعته في حسن التعبير و دقة المعنى و جمال السبل و الأفكار و المنطق الرزين ، و كانت هذه الرسالة ذات قيمة علمية و أدبية حيث صوّر لنا فيها الأمير البيئة وشخص لنا حياة المفكرين المعاصرين له.

إنّ تطرقنا لهذا الجانب الثقافي للأمير لإدراك شخصيته كقائد سياسي و عسكري استطاع التأقلم مع الكفاح القومي التحرري الذي خاضه ضد الفرنسيين مدة 15 سنة ؛ و في نفس الوقت الاطلاع على واقع المسلمين .

و لذلك نعتقد بأنه كان رائدا في الجمع بين العمل السياسي و الحربي و الفكري معا ، قلما توفّرت لدى حكام و أمراء عصره، إمّا أن يكونوا عسكريين محترفين أو علما متخصصين فهو قد قال:

فإن شئت علما تلقى عالما و في الدرع أخباري توهن القوى.

2 - خصوصيات التفاوض عند الأمير

بعد اعتراف باي وهران بالاحتلال الفرنسي لإقليم وهران، اتضحت نوايا قائد الحملة De bourmont "دي بورمنت"، في توسيع الاحتلال الفرنسي لباقي أرجاء الجزائر⁽⁶⁾ ، و في هذه الظروف كان الأمير عبد القادر، قد أصبح مؤهلا للقيادة العسكرية و السياسية للجزائر بعد مشاركته في الحروب الأولى بوهران وتحقيقه للمهارة و القدوة في الدفاع عن الوطن و حكمته في التعامل مع خطوة الباي باللجوء عند قبائل الحشم، إضافة لذلك فإن الأمير حسب ما يذكر "قدّاش" فإنه قد اطلع على العلاقات الخارجية للدول عند زيارته للأماكن المقدسة و مروره بمصر و إعجابه بمحمد علي باشا (7)، حيث

استفاد من تلك التجارب ليخوض أول امتحان له في التفاوض مع أحد القادة العسكريين الفرنسيين " الجنرال دي ميشيل Desmichels.

و ما يفسر لنا هذه الفطنة مبكرا، عدم التسرع في الرد على الجنرال دي ميشيل في أول اتصال به ، بل انتظر حتى يتأكد من نواياه و يستفسر عن قوته و ينظم نفسه و يستطلع آراء أصحابه و مشاوره القادة العسكريين و التأكد من ضعف المعارضة و قد أدلى "دي ميشيل بشهادته حول الأمير ، معتبرا إياه **مفاوضا ذا صلاحية**، يستحق التفاهم معه، عوض الالتحام معه في معارك بدون طائلة (8) .

و نعتقد من جهتنا أن الأمير كان شجاعا ليتصف بهذه الصفات و يقبل تحمل هذه المسؤولية رغم صغر سنه ، و قد نقل العديد من معاصريه هذه الصفات ، بأن يكون رجل سلام تثق فيه فرنسا الاستعمارية ، رغم سوء نوايا قادتها العسكريين الذين كان هدفهم من التفاوض ربح الوقت من أجل تدعيم مركزهم السياسي و العسكري .

و بالتالي فالأمير، كان يتحكم في استراتيجيه التفاوض و يعتقد أن الحرب ما هي إلا وسيلة لتحقيق غايات السلام ، و استخلصنا ذلك من خلال مراسلاته العديدة مع القادة العسكريين الذين يفوقونه خبرة و حنكة ، كانوا يتنافسون فيما بينهم من أجل عقد الصلح معه ، رغم حساباتهم السياسية و العسكرية (9) منذ أن زكته قبائل الجهة الغربية و التحقت بقية القبائل و الشخصيات الالتحاق بسلطانه و خلافته، التي حاول بنائها منذ الوهلة الأولى **بالشورى و التفاهم و التوافق**، لكنه كان حاسما مع المشككين و المتمردين و مروجي الفتن ،إنه حاول بحق إرساء الوحدة و مفهوم الأمة التي غابت كثيرا عن سكان الجزائر مثل ما ذهب إلى ذلك الأستاذ "روزا أواقبي" Rosa Aougi، موضحا قدرة هذا الشاب القائد على فرض الاعتراف على القادة العسكريين الفرنسيين ، و جعلهم يدركون قوة شخصيته في إدارة التفاوض معهم (10).

و قد تعلم الأمير كثيرا من تجاربه مع القادة السياسيين و العسكريين الفرنسيين ، **حيث كان سياسيا ماهرا و دبلوماسيا فذا**، بتعامله مع شخصيات عالمية و تعيينه لسفراء و قناصل أوربيين و إسرائيليين حيث اختار موردخاي "بن دوران" الموسوي ، المترجم السابق للداي وكيلا له في الجزائر العاصمة يفاوض الفرنسيين نيابة عنه، و سفراء أوربيين آخرين.

و لهذه الغاية، فالحرب بالنسبة إليه لم تكن عقابا للعدو بقدر ما هي ضرورة فرضتها الظروف و الأقدار ، لأنه كان يؤمن بالعمل السياسي ، الذي اعتبره غاية مشروعة لبناء الدولة و تدعيم الحياة الاجتماعية على هذه الأرض و هي حسب ما ورد عنه في رسالة "ذكر الغافل" ، هي قبل كل شيء روح تركيب و ترابط ، تهدف إلى تضامن أعضاء المجتمع من أجل تأمين حاجات العالم، و الواقع حسب وجهة نظره لا يوجد تناقض بين الدين و السياسة و لا بين المعرفة العقلية و المعطيات الدينية و كذلك أن الإنسان عليه أن يتحلى بالفضائل الأربعة **(الحكمة و العدل و الشجاعة و القناعة)** (11).

و من هذا المنطلق ،فمعظم المعاصرين له و المقربين منه و القناصل الفرنسيين أمثال دوماس و لي روش و القادة العسكريين أمثال "دي ميشيل و"بيجو" انبهروا بهذه الصفات ، التي تجسدت على أرض الواقع عندما سجن بفرنسا أو في منفاه بالشام و تعامله الحضاري مع القيم الإنسانية التي فقدت عند أبرز القادة الفرنسيين الذي دخل معهم ،الذي استخدم سياسة الأرض المحروقة و كذب على دولته

متسترا على الوثيقة الأصلية لمعاهدة التافنة، موضوع دراستنا المتواضعة لننبش عنها الغبار لنعيش أيام و حويلات الأمير عبد القادر مع هذه التجربة الرائدة في التفاوض ،دون التفريط في الحقوق .

3- إستراتيجية الأمير في التفاوض مع الجنرال بيجو

لقد فرضت المتغيرات الميدانية على الطرفين، التوصل إلى اتفاق مشرف يرضي جميع الأطراف ، لنستفسر عن أهم الظروف التي فرضت نفسها على هذه العملية التفاوضية ، و ما هي إيجابيات و سلبيات معاهدة التافنة على حركة المقاومة ؟و ما هي ردود الفعل اتجاهها من مناصري الطرفين ؟و ما هي خصوصيتها بالنسبة للمفاوض الجزائري ممثلا في شخصية الأمير عبد القادر ؟

أ - الظروف التي أحاطت بعقد معاهدة التافنة

بعد انتصار الأمير على " تريزل بمعركة المقطع " سنة 1835 ، عاقبته حكومته بالتنحي و العودة مطأطأ الرأس إلى بلاده ، مذلولاً و انتقاد الصحافة الفرنسية له ، مما جعل الحكومة الفرنسية تعيد النظر في حساباتها مع الأمير و تأتي بالجنرال " كلوزيل " عسا أن ينفذ الشرف الفرنسي (12).

لم تستفيد فرنسا من هذه الهزيمة و راحت تأمر قادة جيوشها للعمل المستحيل من أجل توسيع الاحتلال و تنفيذ وصية برلمانها بالاحتلال الشامل للجزائر و اعتبار الجزائر مقاطعات فرنسية حسب أممية 1834 ، و لهذا الغرض دفع كلوزيل بقواته لاحتلال معسكر و الانتقام من الأمير ، إلا أن جهوده خابت بالفشل ، فوجد مدينة خالية من السكان ، و دخل الأمير في حرب طويلة مع هذا الجنرال ، الذي فشل هو الآخر في تحقيق النصر الذي وعد به حكومته و تمكن الأمير من التغلب على صعاب هذه الهزائم بمعسكر و وادي السكاك و بتلمسان التي احتلها و ظل الفرنسيون محاصرين بها و انقطعت عنهم السبل و التموين بفضل الحصار الذي ضربته جيوش الأمير عل المنطقة ، رغم احتلال منفذ "رشكون" المقابل للتافنة محاولة الفرنسيين فك الحصار بين تلمسان و وهران (13).

لكن القادة الفرنسيين استخدموا سياسة فرق تسد باستمالتهم لقبائل الدوائر و الزمالة و عقد الاتفاقيات معهم للضغط على الأمير، و في هذه الظروف كلفت فرنسا الجنرال بيجو بقيادة العمليات العسكرية و عينت حاكما عاما " المارشال " دامرمنت Damrémont خلفا لكلوزيل، و طالبت منهما التنسيق لالانتهاء من مقاومة الأمير ، حيث قام "بيجو " Bugeaud الذي نقل الحرب إلى المناطق التي يتواجد بها الأمير .

و لكن الأمير أعاد بناء قواته و عاقب القبائل المتعاونة مع الفرنسيين و حاصر وهران و تلمسان ، حيث وجد "بيجو" و قادته العسكريين أمثال كافيناك Cavaignac محاصرين و قطعت عنهم المؤونة ، و بالتالي وجد الطرفان المتصارعان أنفسهما أمام محك الاتصال و مبادلة رسائل التفاوض ، التي بدئها كالعادة القادة الفرنسيون محاولين تهديد الأمير و القضاء عليه ،إن لم يعترف بسلطان فرنسا ، فوجد وسيط الأمير الفرصة ليقتراح عليهما التفاوض و التبادل التجاري حسب ما ذكر تشرشل : "أن فرنسا في حاجة إلى القمح و اللحم و السلطان من جهته في حاجة إلى الحديد و الرصاص و الكبريت ، فليتبّع كل طرف الآخر و سيكون الجميع راضيين ... " (14) و انتهت صفقة هذا الاتفاق المؤقت بإعطاء دعم معنوي للأمير

بالقضاء على خصومه ، و مكنت فرنسا الانشغال مؤقتا لإعادة الكرة على قسنطينة ، و لكن ثمة أحداث ستغير من مجرى الاتصالات الاستقرازية لبيجو و الحاكم العام ، فكل واحد منهما حاول ابتزاز الأمير لصالحه ، و كان الأمير على علم بخبايا السياسة الفرنسية و الخلافات الموجودة بين القائد العسكري بوهران و حاكمه .

و بسبب استعصاء قسنطينة السقوط في يد الفرنسيين ، اضطرت الحكومة الفرنسية لمهادنة الأمير و مده ببعض الأسلحة ليتغلب على خصومه و شغله عن التنسيق مع "أحمد باي" رغم القطيعة الموجودة بينهما بسبب اختلاف الرؤى في محاربة الفرنسيين و الميول السياسية المتباعدة للطرفين، و فوضت جميع الصلاحيات بالجنرال "بيجو" ليتفاوض مع الأمير في إطار الاحتلال الجزئي للبلاد و حسب العديد من المؤرخين، بأنهم اعتقدوا أن انهزام أحمد باي كان لصالح الأمير، ليتفرغ بالسيطرة على المناطق الشرقية ، و إبعاد منافس له ليتمكن من فرض إرادته على المفاوض الفرنسي الذي اعترف بقيادة الأمير لثلاثي البلاد حسب "قداش" و لم يستطع حسم المعركة عسكريا بسبب التفوق العسكري للجيش الفرنسية⁽¹⁵⁾. أما باحثين آخرين ، اعتبروا أن هذا السلوك لم يثن الأمير من المطالبة بحقوق دولته الناشئة في بيلك الشرق ، حيث امتدت سلطة الأمير إلى الجنوب الشرقي ببسكرة و الجنوب الشرقي لإقليم الجزائر⁽¹⁶⁾ ، و إنما سكوته على عملية الاحتلال ، كانت تهدف في رأينا إلى مهادنة الفرنسيين و طردهم من تلمسان و الضغط عليهم بإقليم التطري .

و في هذه الظروف المليئة بالصعاب و المفاجئات و المناورات بين الأمير و بيجو ، قبل الطرفان في الأخير بعد جولات ماراطونية من التفاوض ، مبدأ عرض بنود المعاهدة المتفاهم عليها على أنصارهما ، أي الحكومة الفرنسية بالنسبة لبيجو دون استشارة حاكمه العام بالجزائر إلا في الأيام الأخيرة من الاتفاق حسب الرسالة التي أرسلها ل"دامرمونت" يبلغه بتفاوضه مع الأمير مبررا ذلك بسوء استخدام الوسيط "بن دوران" لهذه الوساطة⁽¹⁷⁾ و قام الأمير باستدعاء رؤساء القبائل و القادة العسكريين و الأعيان من كل جهات الجزائر يوم 25 مايو على وادي الهبرة و عرض عليهم مواد المعاهدة و تم مناقشتها و أطلعهم الأمير على خبايا السياسة الفرنسية و الخلافات الموجودة بداخلهم ، مما يجعلنا نعتقد أن الأمير كان مطلعاً على الحقل السياسي الفرنسي ، و كان الأمير قد أرسل برسالة إلى "دامرمونت" يبلغه بالتفاوض مع بيجو ، ليعلم و يتأكد من نوايا الفرنسيين باعتبار أنه الحاكم العام للجزائر قال الأمير للحاضرين حسب ما ورد عند تشرشل⁽¹⁸⁾ : " لا أريد أن أسمع أحدا منكم يتهمني بالرغبة في عقد السلام مع المسيحيين ، أن قضية السلام و الحرب هي قضية ، أنتم الذين تبثون فيها ... " ⁽¹⁹⁾ و شرح لهم طبيعة المراسلات و الاقتراحات و العروض .

و مهما اختلفت التفسيرات التي أتت بها معاهدة التافنة التي عقدت بين الطرفين بحضور مناصريهم يوم 30 مايو 1837، حسب ما تذكر معظم المصادر، و تناولها الأمير في مذكراته التي حققها بعض الباحثين بقوله: " و كان قبل سنة مدة هذا الحصار المفروغ منه عقد صلحا مع جنرال و هو الآن مارشال هدنة صلحا على شروط... لأن الكلام مع الفرنسيين و ابتداءه ما بين رمضان و شوال من سنة ثلاث و خمسين إلى شهر ربيع الأول والثاني من خمس خمسين، ثمانية عشر شهرا " ⁽²⁰⁾ و رغم المواد المختلف حولها ، و تحايل بيجو على الأمير لربح معركة التفاوض ، فإن جل المعاصرين و

الباحثين فيما بعد أكدوا على الرغبة الصادقة لدى الأمير لبناء علاقات سلام و الاعتراف المتبادل بين الحكومة الفرنسية و سلطنته ، باعتباره أمير المؤمنين و أنه قادر على تحقيق الأمن و الطاعة على من تحت سلطته .

و مما يجعلنا نستشعر أهمية هذه المعاهدة في العلاقات الدولية القائمة آنذاك و تحليل بنودها الإيجابيات و السلبيات المترتبة عنها.

ب- إيجابيات و سلبيات هذه المعاهدة على المشهد الجزائري آنذاك

لقد تعددت التفسيرات و التأويلات للمواد الخمسة عشر لمعاهدة التافنة ، و هي ثاني معاهدة يعقدها القادة العسكريون الفرنسيون مع الأمير، و قد فصل فيها الكثيرون و انطلقوا من النسخ التي عرضها تشرشل و ابنه "محمد" و آخرين، مما يجعلنا ننق بأهمية التحليلات و التعليقات عليها و تفسير بنودها و نوايا الأطراف الموقعة عليها. (21)

و مما لا شك فيه أن الأمير فاوض كثيرا بيجو لمدار عدة أشهر ليفرض وجهة نظره على بيجو و ربط علاقات متينة مع قادة عسكريين كانوا وسطاء بينه و بين بيجو أمثال دوماس و هو ما يقدم لنا النظرة الصائبة في عملية التفاوض عند الأمير ، و هو نفسه يتكلم على هذه المهمة الصعبة في التواصل مع المفاوض الاستعماري بقوله: " و كان الجنرال الذي ربطنا معه عقد الصلح و المهادنة ، بذل جهده في مصالحنا و تبليغ شروطنا على الوجه الأكمل ساعيا في تتميم ذلك شيئا فشيئا و وعدنا أن الجواب يأتي بعد شهر من عند سلطانهم على سبيل الموافقة و هو جاد في المساومة و سد الخلة بيننا و بين الجيش الفرنسي و وفى بعد مضي الأجل و مجيء طابع الراي بالجل من جميع شروطنا و الجنرال في عرضه يساوي بين الجنسين ثم يوصل كل واحد لمراده شيئا فشيئا، لأن مملكة الوطن الجزائري على يده ... "

و يؤكد لنا ابنه محمد هذه الصعوبة و ثقته في "دوماس" (23) بأن استأنس به عند مرافقته في الباخرة إلى المنفى بفرنسا ، بقوله : "و قال بعض مؤرخي الفرنسيين، لما تعين الكولونيل "دوماس" لمرافقته أنس به لأنه كان أيام معاهدة التافنة بين الأمير و فرنسا وكيلا عنده في عاصمته معسكر و كان الأمير يحسن السلوك مع رفقائه ... "

و من هذا المنطلق فمعاهدة التافنة أكدت على سلمية الأمير و جنوحه للسلم بعد استشارات واسعة لمقربيه و علماء الإسلام و أثبت للدول الاستعمارية الأخرى مثل بريطانيا و أسبانيا، أنه جدير بقيادة الجزائر و لكن اللوبي الاستعماري، بما فيهم الجنرال "بيجو" ، كانوا يسعون لاسترجاع أنفاسهم و ينتظرون الفرص لإتمام احتلال الجزائر، لأن الحركة الاستعمارية كانت على أشدها بين الدول الاستعمارية الأوروبية على القارة الإفريقية (24).

و حسب جوليان (25) ، فإن عقلية هذا اللوبي ظلت متحجرة و لا تعترف لأهالي الجزائريين بالدفاع عن أنفسهم و أجمعوا الرأي على "نظام السيف ، إلى أن أنهار مع انكسار سنة 1870.

و مهما كانت التفسيرات المخيبة للآمال من قبل بعض الباحثين ، فإن لهذه المعاهدة عدة إيجابيات حسب وجهة نظرنا ، تتمثل في ما يلي :

- سمحت هذه المعاهد للأمير للأشغال بمهام بناء الدولة الفتية ، حيث اعتبره الكثير من المتخصصين في العلاقات الدولية، من أبرز رجالات القرن التاسع عشر إلى جانب محمد علي باشا ، بدليل تخوف سلطان المغرب من قوته و هيئته و لكن الأمير كان شريفا و لم يحاول أن يتعدى على ملك العلويين .

- الاعتراف الفرنسي به سلطانا على المسلمين و تبادل السفراء و القناصل، و المعاملة بالمثل ، و كأن بالأمير قد استلهم صلح الحديبية الذي عقد بين الرسول صلى الله عليه و سلم و قريش من جهة ، و من جهة أخرى استفاد من تجاربه السابقة في التفاوض مع "دي ميشيل " .

- استطاع إدارة التفاوض و أشراك أهل العقد و الحل في المشورة و النصيح و لم يكن مستبدا في قراراته بدليل عندما حاول بيجو التلکؤ و إعادة النظر في هذه المعاهدة ، أصر على موقفه و خاطب الملك الفرنسي بأن القرار لا يرجع له وحده بل إلى مجلس الشورى و عندما حضر أحد ممثلي الحكومة الفرنسية في الاجتماع الذي عقده لهذه الغاية ، استمع إلى قرار الرفض⁽²⁶⁾ ، و كان استئناف الحرب قد تسبب فيه الفرنسيون لعدم التزامهم بروح المواد و افتعالهم الحجج و الذرائع لهذه الغاية .

- تأسيس جيش نظامي في وقت قصير و توسيع حدود دولته إلى ثلثي الجزائر

- أصبح الأمير قائدا شرقيا قويا في نظر النخب الفرنسية ، حيث خصصت الصحافة الفرنسية حيزا كبيرا له ، و اطمأن الرأي الرسمي الفرنسي لهذا الرجل و حاول التعامل معه بالمثل ، لولا الأطماع السياسية للقادة العسكريين في الجزائر.

- أما في الجزائر فقد اعترفت به القبائل و المرابطين و اعتبروه سلطانهم في مواجهة الفرنسيين ، حسب ما يذكر "تشرشل: (27)" فقد انهالت عليه الهدايا و العروض من جميع النواحي ، مدة أسابيع ، وجاء الشيوخ و المرابطين و قضاة التطري، بل حتى من وهران يتقدمهم خلفاء لكي يقدموا التهانى للأمير " .

و نجد أنفسنا أمام رجل بذل النفس و الغالي من أجل بناء وطن قومي للجزائريين بالمفهوم الحديث و الاستفادة من الحضارة المعاصرة له و الأخذ بأسباب القوة ، و في اعتقادنا أنه حاول جاهدا إقناع خصومه بالحجة الدامغة و فرض وجود العرب بدلا من الأتراك ، مفندا نظرية تحضير الفرنسيين للجزائريين و أنه كان رجلا تحرريا لم يطمع في ملك و لا مال ، و أن قضية تسليم نفسه طوعية للفرنسيين، لأنه كان يعتقد بالمثل العليا للإنسانية التي قطعها على نفسه الجنرال "لامورسيار "، و تبينت فيما بعد زيف ما كانت تدعيه فرنسا من خلال ممارسة رجالها، حسب ما يذكر الأستاذ أعوبي⁽²⁸⁾، هل الأمير "مكيافيلي أم أنه كان بحق رجل دولة له مشاعره و أحاسيسه الإنسانية ؟ عكس النظرية المكيافيلية المبنية على المنفعة و الثروة ، رغم أنه أخذ ببعض جزئياتها حسب نفس الباحث.

و لكننا نعتقد أن الظروف التي كانت تمر بها المنطقة و العالم الذي دخل في أوج الحركة الاستعمارية، قد فرضت وجودها على مسار حركة المقاومة، و أن فرنسا أخلت بالتزاماتها و لم تقدم الفرصة الكافية للأمير لينظم نفسه ، رغم قيام بيجو بالتلاعب بنصوص المعاهدة و عدم كشفه للنسخة الأصلية للمعاهدة بخاتم الأمير و تقول بعض الروايات أن زوجته أتلقتها بعد وفاته ، خوفا من الفضائح التي تلحق به ، إضافة للأوضاع غير المستقرة بالنسبة للأمير و خروج بعض القبائل عنه و تحالفها مع الفرنسيين ، حسب ما يذكر هو نفسه في مذكراته،⁽²⁹⁾ مما يجعلنا نعتقد أن هناك بعض السلبات التي شابت هذه

المعاهدة ، المتمثلة عي عدم قدرة الوفد الجزائري المفاوض من التحكم في **مصطلحات التفاوض** و تقديم ترجمة واضحة للأمير لكي يوقع على النسخة الفرنسية حتي لا يساء فهمها ، و أيضا الاعتماد الشبه الكلي على وسطاء التفاوض غير الجزائريين أمثال اليهودي "بن دران" و الكولونيل دوماس و السفير قارني " الإيطالي الأصل الذين لم يكن همهم سوى الأموال و استغلال هذه المعاهدة لمصالحهم، يضاف إلى ذلك عدم مساندة ملك المغرب للأمير و الانقسامات التي كانت موجودة بالمجتمع الجزائري منذ الوجود العثماني و قد فصل الأستاذ "بوطالب عبد القادر في إيجاد الأعذار للأمير في مواقفه من عقد هذه المعاهدة و عدم التراجع عنها في بعض الموافق التي قد تسمح له بمواصلة قيادة الجزائر خوفا من المعارضين له بمجلسه الشوري و عدم الاستجابة "لقالي" الذي استغل هذا السوء التفاهم في تنفيذ مواد المعاهدة (30).

4- النتائج التي يمكننا استخلاصها من هذه التجربة

مهما اختلفت الروايات من هذه المعاهدة ، من حيث **سلبياتها و إيجابياتها** و ردود الفعل المختلفة حولها ، فإن الحكومة الفرنسية قد اعترفت بها رغم التناقض الذي وجد في النص الفرنسي ، و التي تعترف صراحة بسلطة الأمير و قد شهد أحد من أبرز قادتها الحاكم العام بالجزائر "المارشال "دامرمونت" محتجا على حكومته من عقد هذه المعاهدة المهيبة لتطلعات الشعب الفرنسي في رسالته السابقة الذكر و التي فصل فيها كثيرا النقاط الإيجابية للأمير قائلا : "هذه الاتفاقية تجعل من الأمير سيدا لكل الأيالة السابقة للجزائر باستثناء مقاطعة قسنطينة و المجالين الضيقين لإقليمي الجزائر و وهران ... (31)".

أن روح التفاوض من شيم الجزائريين عبر التاريخ ، فهم **دعاة سلام و حرية** في نفس الوقت ، و قد جسد الأمير هذه النظرية ، بقوله في كثير من المناسبات ؛ أن تتركونا بسلام لا نريد محاربتكم و أننا ملتزمون بالمواثيق و العهود، و ثبتت الأيام أن الفرنسيين هم من **أخلوا بهذه المعاهدة** عندما لم يحترموا بنود الاتفاقية و اتجهوا نحو منطقة الببيان (الجال الحديدية) و أنذرهم الأمير بذلك و لكنهم خانوا الأمانة و تحايلا على خلا فاء الأمير بتزوير خاتمه و ألّبوا القبائل المعارضة له و استخدموا جميع الحيل لجعل الأمير يقبل التعديلات المقترحة على المعاهدة .

و أهم نتيجة يمكننا استخلاصها من مواقف الأمير من عمليات التفاوض ، هو نيته في تحقيق **حلم الوحدة القرايبية** ، رغم المخاطر التي أعاققت تحقيق ذلك بقوله : " إن الشعب الجزائري فد توحّد الآن ، وطويت الحرب المقدسة و غدت الطرقات آمنة و سالكة و هجرت العادات البربرية و استهجنّت و يمكن للفتاة الشابة الآن أن تجتاز وحدها البلاد من الشرق إلى الغرب في الليل أم النهار دون أن تتعرض لمكروه و غدا الرجل لا يفكر بالانتقام من قاتل أخيه حتى و لو صادفه منفردا، بل يطلب من السلطان أن تجري العدالة في مجاريها ... (32)"

أننا اليوم بحاجة إلى هذه التجربة الفريدة التي لم يحالفها الحظ في تحقيق حلم الاستقلال مبكرا و توالى أحفاده و بني جلدته مواصلة هذا المسار إلى غاية تحقيق الاستقلال و الحرية بشكل كامل و قد استفاد أبناء نوفمبر من تجربة البطل و المجاهد الحاج عبد القادر في عمليات التفاوض و اظهروا للفرنسيين مرة ثانية بعد مرور القرن و ما يزيد أنهم أشاوس و أبطال تمكنوا من الانتصار على مظاهر الخديعة و الغدر عندما تمكنوا من تحرير الأرض كلها و توحيد البلاد و حققوا حلم و مبادئ الأمير عبد القادر و استفاد المفاوض الجزائري من جميع تجارب من سبقوه من أجل تحرير البلاد و العباد من ظلم المستعمرين.

الملاحق

PIÈCE I الملحق رقم 1:

RELATIVES. À L'ADMINISTRATION DU MARÉCHAL CLAUZEL.

.

Rapport sur l'établissement à former à l'embouchure de

la Tafna, en face de l'île de Rachgoun. DEUXIÈME PARTIE, p 364

Nous occupons, depuis le mois d'octobre 1835, l'île de Rachgoun dans le but : 1° d'empêcher le commerce d'exportation des grains qui échappait à nos douanes ; 2° d'ouvrir une communication avec Tlémecen, dont la citadelle était occupée par des Turcs qui se battaient pour nous.

Mais l'occupation de l'île est devenue insuffisante, parce

qu'elle ne donne aucune action sur le littoral, qui en est à 2,000 mètres, et qu'elle ne permet nullement de communiquer, même par lettre, avec Tlémecen.

Cependant, depuis la dernière expédition d'Oran, qui nous a

conduits à Tlémecen, nous avons reconnu que la seule communication possible avec cette ville est par Rachgoun. Il n'y a, en effet, de ce point à Tlémecen, que quatorze lieues, distance que l'on pourrait franchir en un ou deux jours au plus ; tandis que la communication par terre exige six jours de marche environ. L'établissement sur le littoral de Rachgoun est donc tout à fait indispensable ; il faut le créer, le plus tôt possible, afin d'être en mesure de ravitailler facilement

le bataillon de Tlémecen.

Or, les circonstances semblent favoriser l'établissement dont

il s'agit. Les tribus de l'est se sont soumises, celles de la rive droite de la Tafna paraissent disposées à cesser les hostilités; l'effet produit par les deux expéditions de Mascara et de Tlémecen a encore du retentissement, et Abd-el-Kader peut à peine réunir quelques centaines d'hommes.

Il y a deux moyens de s'emparer de l'embouchure de la Tafna

Le premier, par un débarquement de troupes ;

Le second par une expédition partant d'Oran et suivant le littoral.

C'est cette dernière qui paraît seule praticable, dans l'état actuel de nos moyens de transport par mer; cependant il faudra un bateau à vapeur et de fortes chaloupes pour amener, de l'île à terre, tout le matériel qui est déjà arrivé depuis le mois de janvier, époque à laquelle nous étions à Tlémecen.

TRAVAUX A EXÉCUTER.

Les travaux à exécuter consisteront :

1° En une espèce de tête de pont en terre sur la rive droite de

la Tafna, embrassant le point de débarquement, et dont la tour actuelle, qui est en maçonnerie, servira de réduit;

2° En une forte redoute sur la hauteur en avant, avec un blockhaus au centre ;

3° En un second blockhaus pour assurer la communication de

la redoute à la tête du pont.

Il faudra pour l'organisation de ces moyens de défense :

Trois compagnies de sapeurs, dont une tirée d'Alger ;

Quatre à cinq cents travailleurs d'infanterie ;

Deux pièces de huit dans la grande redoute ;

Deux id. dans la tête du pont.

RAPPORT SUR LA TAFNA. P,365

Quant à la force de la garnison, je crois que dans le commencement, elle devra être de 300 hommes au moins; ils logeront dans deux baraques, dont une dans la tête de pont, et l'autre dans la redoute de la hauteur en avant ; les deux blockhaus contiendront le reste. On peut évaluer à huit ou dix jours la durée des travaux, mais elle est susceptible de diminution, suivant la nature du terrain qu'on rencontrera, et suivant le nombre des travailleurs d'infanterie qui seront mis à ma disposition.

Un bateau à vapeur est nécessaire, pendant toute la durée

de l'opération, pour remorquer les chaloupes qui iront dans l'île chercher des matériaux, et pour tirer sur le rivage si les attaques des Arabes deviennent sérieuses.

Alger, le 14 avril 1836.

Le colonel directeur des fortifications, Signé LEMERCIER.

Approuvé pour être exécuté immédiatement, Signé Mal CLAUZEL.

Pour copie conforme, Le lieutenant général commandant les troupes en Afrique, Signé Bon RAPATEL.

Pour copie conforme,

Signé Gal D'ARLANGES.

PIÈCE II

: 2 الملحق رقم

AU GÉNÉRAL DAMRÉMONTp, 399

Lettre du général Bugeaud au général Damrémont.

Au camp de la Tafna, le 29 mai 1837.

GÉNÉRAL,

Je vous dois une réparation, je vais vous la faire avec franchise. Abd-el-Kader assure que vous ne lui avez jamais

fait de propositions de paix.

J'ai donc été trompé par Durand, qui jouait un double

jeu pour obtenir des concessions des deux parties

contractantes, en mentant à l'une et à l'autre. Il travaillait

surtout à sa fortune : c'est un homme sordide. Je ne l'ai

pas employé dans ces dernières négociations : j'ai traité

directement.

Recevez mes excuses, Général, effacez de votre esprit

les impressions qu'ont dû y laisser mes reproches

mal fondés.

Recevez, etc.

Signé : BUGEAUD

LETTRE D'ABD-EL-KADER.**Lettre d'Abd-el-Kader au général Damrémont, écrite****après la conclusion de la paix.**

Louange à Dieu seul.

L'Émir des croyants, Sid-el-Hadji-Abd-el-Kader, au très illustre gouverneur Damrémont, chef des troupes françaises à Alger.

Que le salut et la bénédiction de Dieu, ainsi que sa miséricorde, soient sur celui qui suit la voie de la justice.

Vous ne devez pas ignorer la paix que nous avons faite avec le général Bugeaud. Nous aurions désiré que la paix se fît par votre entremise, parce que vous êtes un homme sage, doux, et

accoutumé à ce qui se pratique dans le cabinet des rois ; mais le général d'Oran, nous ayant écrit qu'il avait le seing du roi pour traiter, ainsi que ça a eu lieu, vu aussi sa proximité, nous avons passé avec lui un acte authentique à ce sujet, comme la nouvelle vous en est arrivée en son entier. Je suis donc maintenant avec vous sur la foi et le traité passé entre nous et la nation française.

Calmez-vous donc de vos côtés ; comptez que tout tournera à

bien et selon vos désirs. Vous n'éprouverez aucun mal de ce que pourront faire les Arabes des contrées placées sous mon commandement,

du côté de Bouffarik, de la Métidja et des environs.

Dans peu, s'il plaît à Dieu, je me porterai de vos côtés. Je

ferai cesser le désordre ; je tirerai au clair toutes les affaires, tant avec vous qu'avec d'autres, pour qu'il ne reste plus rien qui ne soit en harmonie avec la raison.

Si vous avez besoin de quelque chose qui soit en notre pou

, voir, nous vous satisferons, et nous ne resterons pas en arrière.

Il doit en être de même de vous à nous. Ainsi que vos lettres

nous arrivent, demandant tout ce que vous voulez, comme cela a

été, comme cela sera toujours l'habitude des princes amis. Moi aussi, je vous écrirai pour tout ce qui concerne les affaires de ce monde.

Écrit le vendredi soir du ter du mois de Rabi-el-Tani, de l'an

de l'hégire 1253, par ordre de notre seigneur l'Émir des Croyants, celui qui rend la religion victorieuse, que Dieu le protège et que la délivrance arrive par lui. — Ainsi soit-il.

المصدر :

Pélissier(E),les Annales, livre XXII, Convention avec Abd el Kader, Ausselinet Gautier, laguionie ,
librairie pour l'art militaire ; Marseille chez camons ;librairie 1839,pp 364 - 401

الهوامش

1- حرب أديب ،التاريخ العسكري و الإداري للأمير عبد القادر ،دار الأديب للكتاب ج 2 ط2، 2004، ص ص 5و6(الوثيقة أصبحت أول نص قانوني لفرنسا في الجزائر ،لم تحترم من خلاله التعهدات التي تعهدت بها للدائي بحمايتها للجزائريين ،و ذلك بارتكابها لمجازر وحشية و القضاء على مختلف مؤسسات الجزائريين .)
2- تشرشل شارل هنري،حياة الأمير عبد القادر،ترجمة سعد الله أبو القاسم،الدار التونسية للنشر 1974 ص 50

3- طالع عشراتي سليمان الأمير عبد القادر المفكر ،دار الغرب للنشر و التوزيع وهران، الجزائر، 2002، ص 47.

4 - بوعزيز يحي، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري،ط2، 1964م،ص 18 .

5- طالع عشراتي سليمان ، مرجع سابق، 2002، ص ص 47-48

6Neltevver Alfred „histoire de La conquête d'Alger, nouvelle édition ,librairie jacques le coffre 1867,
p 498 -

7- قداش محفوظ،الأمير عبد القادر،فن و ثقافة ، وزارة الاتصال و الثقافة ، الجزائر ،نشرة 2002،ص 12

8 – بوطالب عبد القادر ،الأمير عبد القادر و بناء الأمة الجزائرية ، من الأمير عبد القادر إلى حرب التحرير ، منشورات دحلب ،
الجزائر 2009 ، ص 63

9 – انظر مجموعة من المصادر قد أوردت مراسلات الأمير مع القادة العسكريين و السياسيين الفرنسيين ، بما فيهم ملك فرنسا لويس
فليب :

-Pélissier(E),les Annales, livre XXII, Convention avec Abd el Kader, Ausselinet Gautier, laguionie ,
librairie pour l'art militaire ; Marseille chez camons ;librairie 1839 p 385

- تشرشل هنري ، مصدر سابق ص 115و10

Aougbi Rosa: « Un Personnage Charismatique face au Destin de L'Algérie » in

10Actes du Colloque Internationale, Alger le 25et 26/05/2005, , publication de la fondation Emir
Abdelkader, Algérie 2005

11- الزبيري محمد العربي ، الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر ش.و.ن.ت. 1982 ص ص 75 – 81

Berteuil Arsène , L'Algérie française , TI ,Paris Librairie éditeur 1856 , p 266 -12

Ministère de la Défense Nationale, La Résistance Armée Algérienne 1830- 1920, Centre - 13
d'Etude Générale et de Documentation p 34

14 - تشرشل هنري مصدر سابق ، ص 109 و قارن Société Lecoq(A), L'occupation de Tlemcen En 1836, Société
historique Algérienne, Alger 1936 , p pp 18 – 19

15 – قداش محفوظ ، مرجع سابق ص ص 33 - 36

16- برونو إتيان، الأمير عبد القادر الجزائري، ترجمة المهندس ميشل جوري، دار العربي Aneq، ط2، 2001، الجزائر ص 188 و بوطالب عبد القادر، مرجع سابق ص 79 و انظر أيضا العسلي بسام، الأمير عبد القادر الجزائري دار النفائس، بيروت، لبنان، ط 32، 1986 ص 113
- 17
Pélissier(E), op cit 78 – 380

18- ibid, voir La lettre de L'Emir a Damrémont, p 401، و هي مدرجة ضمن ملاحق هذا البحث
19- تشرشل هنري، مصدر سابق، ص 116، و انظر نس المعاهدة عند تشرشل 116 – 119 و أيضا عند قداش، مرجع سابق ص 34 – 39

20- للأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر، سيرة ذاتية كتبت في السجن سنة 1849، تحقيق محمد الصغير بناني، و آخرون، دار الأمة، الجزائر 2010 ص 115 – 116
21- انظر تحليلاتها و التعليق عليها عند قداش محفوظ مرجع سابق، ص 38 - 39 و أيضا عند برونو إتيان، مرجع سابق ص 188 – 190 أما الفرنسيين المعاصرين للمعاهدة فقد حلل مضمونها بشكل مفصل، حيث انتقد المارشال "دامرمونت موادها، في رسالة لحكومته / انظر :

Pélissier(E), op cit 385 - 402-
22- للأمير عبد القادر مصدر سابق، ص 116
23- محمد ابن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر، ج2، المطبعة التجارية الإسكندرية، مصر 1903، ص 7

24 - القوزي محمد علي، في تاريخ افريقيا الحديث و المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2006، ص 16
25- جوليان شارل أندري، افريقيا الشمالية تسير (القوميان الاسلامية و السيادة الفرنسية)
المنجي و آخرون و الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، حقوه الطبع للدار التونسية للنشر، تونس، 1976 ص 41
26- Pélissier(E), op cit pp 385 – 402 و قد اندهش المارشال "دامرمونت" في رسالته المرسلة إلى رئيس المجلس و وزارة الحربية. و انظر أيضا برونو إتيان، مرجع سابق، ص 189 – 190
27 - تشرشل هنري، مصدر سابق ص 128

- 28
Aoughbi, Rosa, op cit pp 71 – 73
29 - مذكرات الأمير عبد القادر، تحقيق محمد الصغير بناني و آخرون، مصدر سابق ص 118 بوطالب عبد القادر، مرجع سابق، ص 129 - 136

30 - Ministère de la Défense Nationale, La Résistance Armée Algérienne, Centre d'Etudes générales - et de documentation, p 44
31 Pélissier(E), op cit p 385

32 - برونو إتيان، مرجع سابق، ص 196 – 197